

المذهب الحنفي: النشأة والتطور والخصائص والأصول

يُعدّ المذهب الحنفي أقدم المذاهب الفقهية من حيث التأسيس والتدوين، وقد عرف انتشارًا واسعًا بفعل قوة منهجه، وغزارة إنتاج علمائه، وارتباطه المبكر بالدولة العباسية، ثم تبنيه رسميًا من قبل الدولة العثمانية. وقد مرّ المذهب عبر ثلاث مراحل أساسية: النشأة، والانتشار، والاستقرار، تطور خلالها منهجه، وأثريت مدونته، واستقرت معالمه العلمية.

أولاً: مرحلة النشأة والتكوين (120-204هـ)

امتدت هذه المرحلة من جلوس الإمام أبي حنيفة للتدريس بالكوفة سنة 120هـ، إلى وفاة آخر تلامذته الكبار، الحسن بن زياد اللؤلؤي (ت: 204هـ). وقد أسّس أبو حنيفة هذه المدرسة بمعينة تلامذته، على رأسهم:

- أبو يوسف القاضي (ت: 183هـ): تولى منصب قاضي القضاة زمن الرشيد، وكان له دور محوري في نشر فقه المذهب.
- محمد بن الحسن الشيباني (ت: 189هـ): صاحب أشهر كتب المذهب المعروفة بـ"كتب ظاهر الرواية".
- زفر بن الهذيل (ت: 158هـ): من فقهاء الرأي الكبار، وله اختيارات فقهية مميزة داخل المذهب.

أبرز المؤلفات في هذه المرحلة:

- الآثار، وكتاب الخراج لأبي يوسف.
- كتب ظاهر الرواية لمحمد بن الحسن: المبسوط (الأصل)، الجامع الكبير، الجامع الصغير، الزيادات، السير الكبير، السير الصغير.

وقد شكلت هذه الكتب اللبنة الأولى للمذهب، وجمعت فتاوى الإمام وآراء تلامذته، وأرست أصول المذهب ومصطلحاته.

ثانياً: مرحلة الانتشار والتفيعيد (204-710هـ)

في هذه المرحلة، امتد المذهب إلى خرسان وبلاد ما وراء النهر، وبرزت فيه مدرستان أساسيتان: مدرسة العراق، ومدرسة سمرقند. وقد تميزت المرحلة بـ:

- تحرير الأصول، وتقييد الفروع.
- تدوين مختصرات الفقه التي أصبحت معتمدة في التعليم والقضاء.
- توسيع دائرة الاجتهاد داخل المذهب.

من أبرز أعلام هذه المرحلة:

- شمس الأئمة السرخسي (ت: 483هـ): صاحب الميسر، وهو شرح على الكافي في كتب ظاهر الرواية.
- القدوري (ت: 428هـ): صاحب مختصر القدوري، الذي اعتمد عليه المتأخرون في الشروح والحواشي.
- الكاساني (ت: 587هـ): صاحب بدائع الصنائع، وهو شرح لكتاب تحفة الفقهاء لأبي الليث السمرقندي.
- النسفي (ت: 710هـ): صاحب كنز الدقائق، من أهم المتون المعتمدة.

وقد اتسمت هذه المرحلة بنضج منهجي واضح، وترسيخ مصطلحات مثل: "ظاهر الرواية"، "القياس الجلي"، "الاستحسان"، و"الفقه التقديري".

ثالثاً: مرحلة الاستقرار (بعد 710هـ)

تمتد هذه المرحلة إلى ما بعد القرن الثامن الهجري، وتُعرف بمرحلة الاستقرار والتقنين، حيث انتشرت المختصرات والشروح، وتم الاعتماد على أقوال الأئمة السابقين، مع انحسار الاجتهاد المستقل.

من أعلام هذه المرحلة:

- ابن نجيم المصري (ت: 970هـ): صاحب البحر الرائق.
- علاء الدين الحصكفي (ت: 1088هـ): صاحب الدر المختار.
- ابن عابدين (ت: 1252هـ): صاحب رد المحتار على الدر المختار، ويُعد خاتمة فقهاء الحنفية في بلاد الشام.

خصائص هذه المرحلة:

- الاعتماد على المختصرات مثل الكنز والقدوري.
- الاكثار من الشروح والحواشي.
- انحسار الإبداع الفقهي وظهور الركود النسبي.
- تقنين الفتوى وتنظيم القضاء.

رابعاً: الخصائص المنهجية للمذهب الحنفي

1. التعليم بالحوار والمناظرة: كانت حلقة أبي حنيفة مجلس شورى اجتهادياً، لا يملئ فيه الرأي دون مناقشة.
2. التأسيس الجماعي للمذهب: شارك التلاميذ في بناء أصول المذهب واستنباط فروعه.
3. التوسع في القياس والاستحسان: لتغطية النوازل في بيئة قليلة الرواية كثيرة الحوادث.
4. الاحتياط في الرواية: اشترطوا في قبول خبر الأحاد شروطاً صارمة.
5. الفقه التقديري: استخدموا فرض المسائل لاختبار الأصول وتأهيل المجتهدين.
6. الارتباط السياسي: اعتمدته الدولة العباسية، ثم تبنته الدولة العثمانية كمذهب رسمي للقضاء، مما ساعد على انتشاره.

خامساً: أصول المذهب الحنفي

يُعد المذهب الحنفي غنياً بالأصول الفقهية، ومن أبرزها:

1. القرآن الكريم: أصل التشريع الأول، يُقدّم على غيره.
 2. السنة النبوية: يشترط في قبول خبر الأحاد الضبط، العدالة، شهرة الرواية، وعدم مخالفة العمل المتواتر.
 3. الإجماع: يُعتمد عند ثبوته.
 4. قول الصحابي: يؤخذ به عند الاتفاق، ويُتخير من أقوالهم عند الاختلاف.
 5. القياس: أصل مركزي في المذهب، ويُستخدم بتوسع لتغطية المستجدات.
 6. الاستحسان: ترك القياس إلى ما هو أولى للمصلحة، وهو أصل مميز في المذهب.
 7. العرف والعادة: لهما أثر كبير في الفتوى والتنزيل.
-

خاتمة

يمثل المذهب الحنفي أنموذجًا في البناء المؤسسي للفقهاء، وقد تميز بالعمق الأصولي، والمرونة الاجتهادية، والانضباط المنهجي. وقد مكّنه اتساع أصوله الفقهية من التعامل بفعالية مع النوازل المتجددة، ومن تأسيس مدرسة اجتهادية ذات طابع جماعي تُعد من أقوى مدارس الفقه الإسلامي من حيث الامتداد الجغرافي والعمق المنهجي.

المراجع:

- السرخسي، محمد بن أحمد. (1993). *المبسوط*. بيروت: دار المعرفة.
- ابن عابدين، محمد أمين. (1994). *رد المحتار على الدر المختار*. بيروت: دار الفكر.
- الذهبي، شمس الدين. (2001). *سير أعلام النبلاء*. بيروت: مؤسسة الرسالة.
- ابن خلدون، عبد الرحمن. (2004). *المقدمة*. بيروت: دار الفكر.